المحاضرة السابعة: المقامات (بديع الزمان الهمذاني ،مقامات الحريري، مقامات الوهراني.)

01- تعريف المقامة:

أ. **المعنى اللغوي:** في العصر الجاهلي كلمة "مقامة" تستعمل بمعنيين، فتارة تستعمل بمعنى مجلس القبيلة أو ناديها، على نحو ما نرى عند زهير إذ يقول:

وَ فِيهُم مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهَا وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا القَولُ والفِعْلُ

وتارة تستعمل بمعنى الجماعة التي يضمّها هذا المجلس أو النادي، على نحو ما نرى عند لبيد إذ يقول:

وَمَقَامَةٍ غُلْب الرّقَابِ كَأَنَّهُمْ جِنٌّ لَدَى بَابِ الحَصِيرِ قِيام

فالكلمة تستعمل منذ العصر الجاهلي بمعنى المجلس أو من يكونون فيه، وفي العصر الإسلامي تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة أو غيره ويتحدث واعظاً. وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها .ثم نجدها تستعمل بمعنى المحاضرة.

وعلى هذه الشاكلة تعفى الكلمة من معنى القيام وتصبح دالّة على حديث الشخص في المجلس سواء أكان قائما أم جالسا[1].

ومن خلال هذه الشواهد الشعرية يتضح مدلول جذرها اللغوي وينحصر في دلالة المجلس أو ناس المجلس وما ينتابه من مدّ القول والفعل.

والثابت أن لفظة "المقامة" قد اِنحرفت في «القرن الثالث الهجري فتدنى إلى الدلالة على كلام الشحاذين الذين اضطروا في توسلهم بدعاءات توجيهية أن يستعملوا لغة مختارة منمّقة. ذلك أن الثقافة الأدبية التي كانت فيما سلف من مميزات البلاطات وروادها أخذت في الانتشار بين طبقات الشعب»[2].

وعلى هذه الشاكلة تعفى الكلمة من معنى القيام وتصبح دالة على حديث الشخص.

ب. **المعنى الاصطلاحي:** بديع الزمان هو أول من أعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الأدباء، إذ عبّر بها عن مقاماته المعروفة، وهي جميعها تصور أحاديث تُلقى في جماعات، فكلمة مقامة عنده قريبة المعنى من كلمة حديث. وهو يصوغه في شكل قصص قصيرة يتأنق في ألفاظها وأساليبها، ويتخذ لقصصه راويا واحدا هو عيسى بن هشام كما يتخذ لها بطلا واحدا هو أبو الفتح الإسكندري الذي يظهر في شكل أديب شحاذ، يروّع الناس بمواقفه بينهم وما يجري على لسانه من فصاحة في أثناء مخاطباتهم. وليس في القصة عقدة ولا حبكة، وأكبر الظن أن بديع الزمان لم يكن يريد أن يؤلف قصصا، وإنما كان يريد أن يسوق أحاديث لتلاميذه تعلمهم أساليب اللغة العربية

1- ينظر: لجنة من أدباء الأقطار العربية: فنون الأدب العربي الفن القصصي المقامة، دار المعارف، مصر، ط3، ص7.

2- فكتور الكك: بديعات الزمان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1961، ص43،44.

وألفاظها المختارة[1]. وهي على هذا النحو «حديث قصير من شطحات الخيال أو دوامة الواقع اليومي في أسلوب مصنوع مسجع تدور حول بطل أفاق أديب شحاذ يحدث عنه وينشر طويته راوية جوالة قد يلبس جبّة البطل أحيانا وغرض المقامة البعيد هو إظهار الاقتدار على مذاهب الكلام، وموارده ومصادره، في عظة بليغة تقلقل الدراهم في أكياسها أو نكتة أدبية طريفة أو نادرة لغوية لطيفة أو شاردة لفظية»[2]

فالمقامة في الاصطلاح فن من فنون النثر الأدبي، وهي في حقيقتها عرض لمهارة المؤلف اللغوية في قالب قصصي تغلب عليه روح الفكاهة. والجديد هنا في هذه المقامات هو القالب الذي يعرض فيه المؤلف ثروته اللغوية. والمقامات في حقيقتها عمل لغوي، وهي في باب التصانيف اللغوية أدخل[3] .

ويظهر من خلال هذه الآراء – تصريحا أو تلميحا – أن المقامة فن لغوي قائم بذاته يعتمد على راوٍ وبطل يسوق أحداثا لها طابع السخرية والفكاهة، وهي في هذا لا تنفي الإطار الزمكاني الذي يؤثث تلك القصة في طابعها الخيالي المتصنِّع.

02- أسباب نشأة المقامة:

يرتبط التأريخ لفن المقامة في القرن الرابع الهجري، بالعصر العباسي في الفترة الثانية منه، وهو ما جعلها مرآة عاكسة لكثير من التطورات والتغيرات الطارئة على الحياة والأدب في جميع المجالات السياسية والفكرية والاجتماعية والمذهبية والدينية والثقافية.ولعل أهمها:

02-1. أسباب سياسية: تميزت الحياة السياسية في هذه الفترة باضطرابات جذرية وصراعات عرقية كانت نتيجة لضعف الخلفاء، وتمرد الأمراء، مما أدى إلى تزعزع هيبة الخلافة وتضعضع أركانها، وبالتالي عجزت السلطة المركزية على التحكم ي أطراف الدولة، فاستقلت تلك الأطراف، وكان نتيجة ذلك قيام دويلات متعددة كالدولة البويهية في فارس والعراق (321 / 447هـ) والغزنوية في الهند وأفغانستان (351 / 582هـ)، والفاطمية في مصر والشام (357 / 367هـ) [4].

وقد كان سقف العلاقات بينها محكوم بالصراع والتنافس على سُدَّة الحكم.

1- ينظر: لجنة من أدباء الأقطار العربية: فنون الأدب العربي الفن القصصي، المقامة، ص7.

2- فكتور الكك: بديعات الزمان، ص48.

3- طه ندا، الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1991، ص173.

4- ينظر إبراهيم أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص29، 40.

02-2. أسباب اجتماعية: ولعل أبرزها اِنتقال العرب من الحياة البدوية القائمة على الطبيعة وما فرضته من حلٍّ وترحال، إلى الحياة الحضرية المتمدِّنة، وكان هذا سببا فاعلا في تعقّد الحياة الاجتماعية، وظهور الطبقية، طبقة فاحشة الثراء عاشت عسيلة الحياة من بذخ وترف، فكان من الطبيعي أن تظهر في المقابل طبقة شعبية مهمشة تشيع بينها ضروب الكدية والاستجداء، كما اِنقسم الأدباء في هذه الظروف الاجتماعية إلى:

فئة متسلقة على أكتاف الأمراء والوزراء تنعم برغيد العيش عندهم.

وفئة لم تتصل بالبلاط ولم تتواصل مع هيئاته، فكان شظف الحياة وضنك العيش مصيرها، وهو ما أدى إلى ظهور ثلّة من الأدباء الفقراء يجوبون الأصقاع يتكسبون بأدبهم ويتسّولون بفنونه يستغلون سذاجة العامة من الناس «ولأصحاب هذه الحرفة حيل وأساليب وحصيلة واسعة من اللغة ينالون بها الإعجاب ويستخرجون بها الدراهم والدنانير من جيوب المستمعين»[1]

02-3. أسباب ثقافية: عرفت الحياة الثقافية اِزدهارا كبيرا ونشاطا حفيفا سببه انفتاح العرب على غيرهم من الامم ومدّ جسور التأثر والتأثير مع الحضارات الهندية، اليونانية، الفارسية)، حيث تطورت الأغراض الشعرية وتنوعت المضامين وتعددت ضروب النثر واتسعت، وهو ما خلّف نتاجا أدبيا ضخما يشكل مظهرا إبداعيا لذلك العصر.

03- أصل المقامة ومراحل تطورها:

أشهر من عُرِف بهذا اللون النثري بديع الزمان، وليس هناك من اِرتاب في هذا السبق من رجال النقد، على أن الأمر موكول إلى الأخذ والتأثر بالسابقين على حدّ القول: «أن المتصِّدى بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فضالته ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته ... وقد وصلت إلى أن بديع الزكممكطكان ليس مبتكر فن المقامات وإنما ابتكره ابن دريد المتوفى سنة 321»[2]

يبدو أن بديع الزمان كان قد اِلتقط بذور هذا اللون اللغوي الذي عرف عنه باسم المقامات ممن سبقوه من اللغويين ويذكر الحصري في زهر الآداب أنه اقتدى في هذا بابن دريد، وينقل عنه ياقوت الحموي[3] قال أبو اسحاق حين عرض لكلام بديع الزمان: كلامه عضّ المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفا، والهوى يعشقه ظرفاً، وذكر أنه اِستنبطها من ينابيع صدره، واستنخبها من معادن فكره، وأبداها للأبصار والبصائر، وأهدافها للأفكار والضمائر، في معارض عجمية، وألفاظ حوشية فجاء أكثر ما أظهر

1- طه ندا، الأدب المقارن، ص185.

2- زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص200..

3- طه ندا: الأدب المقارن، ص174، 175.

تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها، إذ صرف ألفاظها ومعانيها، في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفا وتقطر حسنا[1].

وقد امتدح الحصري مقامات الهمذاني وأبدى إعجابه بها وبمؤلفها، وحاول التنقيب عن جذورها وأصولها فأرجعها إلى أحاديث ابن دريد وهو أول ناقد يقول بمعارضة الهمذاني في مقاماته لأحاديث ابن دريد، ولم يبين على أي أساس أقام هذا الحكم. وفي أثناء ترجمة الثعالبي لبديع الزمان الهمذاني يتعرض لمقامات البديع ويمتدحها إذ يقول: «وأملى الهمذاني أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، من لفظ أنيق، قريب المأخذ بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام، وجد يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول، وواضح أن الثعالبي هنا يرجع سبب إعجابه بمقامات البديع إلى الجانب الأسلوبي منها المتمثل في الألفاظ المنتقاة المستأنسة ذات الدلالات البعيدة، والسجع الرشيق، بالإضافة إلى جانب المضمون المتنوع بين الجد والهزل»[2]

ولاريب في أن بين أحاديث ابن دريد وبين المقامات شبها قويا من حيث القصص والسجع، ولكن هناك أيضا فروقا كبيرة في الصناعة وفي العقدة وفي وجود بطل للمقامات هو المكدي، وفي انبناء المقامة على الكدية، وعلى الهزء من عقول الجماعات مع إظهار المقدرة في فنون العلم والأدب، إلى ما هنالك من خصام و,/ 'و ذص فن المقامات ما يجعلها متميزة من حيث الشكل والمضمون .

على أن هذا لا يعني أن بديع الزمان لم يطلع على أحاديث ابن دريد أو على ما رُوي عن العرب من قصص وأحاديث وأسار. ولكن الفرق بين تلك الأحاديث وبين المقامات من حيث الغاية والأسلوب كبير جداً. وعلى كل فإن بديع الزمان إن لم يكن مخترع فن المقامات، فإن مقاماته أقدم ما وصل إلينا من هذا الفن الأدبي[3].

وعليه نجد أن المقامة غرس من الأدب العربي جملة لا يقتصر الأمر على صاحب قصب السبق، وإنما الشأن في نضج هذا الفن وتصييره فنا قائما بذاته له خصائصه ومميزاته.

04- عناصر المقامة وخصائصها:

---

[1])=خ/بارك: النثر الفني في القرن الرابع، ص200، 201.

[2]- ينظر: مصطفى البشير قط: مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجاهلية، المسيلة، " الجزائر، 2010، ص134، 135.

[3]- ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، الأدب المحدث إلى آخر القرن الرابع هجري، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1981، ص413.

للمقامة خصائص وشروط لا تقوم إلا بها أهمها: [1]

04-1. المجلس: يجب أن تدور أحداث المقامة في مجلس واحد لا تنتقل منه إلا في ما شذّ وندر (وحدة مكان ضيقة).

04-2. الراوية: ولكل مجموع من المقامات راوية واحد ينقلها إلى المجلس الذي تحدث فيه.

04-3. المكدي: ولكل مجموع من المقامات مُكْدٍ واحد أيضا- أو بطلٌ وهو شخص خيالي في الأغلب واسع الحيلة ذَرِبُ اللسان ذو مقدرة في العلم والدين والأدب، وهو شاعر وخطيب، يتظاهر بالتقوي ويضمر المجون، ويتظاهر بالجدِّ ويضمر الهزل، وهو يبدو غالبا في ثوب التاعس البائس إلا أنه في >الحقيقة طالب منفعة، وتنعقد المقامة دائما بأن يجتمع الراوية بالمكدي في مجلس واحد، ويكون المكدي دائما متنكرا.

04-4. المُلْحَة (النكتة أو العقدة): وهي الفكرة التي تدور حولها القصة المتضمنّة في المقامة إلا أن المؤلف واحد والراوية واحد والمكدي واحد. وقد تكون القصص من أزمنة مختلفة متباعدة وإن كان الراوية واحد.

04-5. موضوع المقامة: موضوعات المقامات مختلفة منها أدبي ومنها فقهي ومنها فكاهي ومنها حماسي، ومنها خمري أو مجوني. وقد تكون المقامة طويلة أو قصيرة.

04-6. اسم المقامة: مأخوذ عادة من إسم البلد الذي انعقد فيه مجلس المقامة نحو: المقامة الدمشقية، التبريزية، الرملية، السمرقندية، ... أو من الملحة التي تنطوي عليها المقامة نحو المقامة الدينارية، الحرزية، الشعرية.

JHH04-7. شخصية المقامة: ليست شخصية المكدي ولكنها شخصية المؤلف، و تنبَنِي هذه الشخصية على الدراية الواسعة بكل شيء يطرقه المكدي، أو المؤلف على الأصح، فهو واسع الاطلاع من شعر ونثر وخطابة، حاد الذهن قويّ الملاحظة في حلّ الألغاز وكشف الشبهات، مرح طروب في اجتياز العقبات وسلوك المصاعب.

04-8. الصناعة في المقامات: فن المقامات فن تصنيع وتأنق لفظي «فلم يتجهوا بالمقامة إلى حوادث النفس وحركاتها، ولا إلى الإفساح للعقل كي يعبر عن العواطف ويحللها، وإنما اتجهوا بها إلى ناحية لفظية

1- ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ص413، 414.

صرفة، إذكان اللفظ فتنة القوم وكان السجع كل ما لفتهم من جمال في اللغة وأساليبها، وكانت ألوان البديع كل ما راعهم منها ومن أسرارها»[1]

والمقامة قصة نثرية ولكن قد يتخللها شعر قليل أو كثير من نظم صاحبها المكدي، أو من نظم بعض الشعراء، فيما يروى على لسان المكدي أيضا، ويتبع القصص والمقامات فن الفكاهة وهي رواية الحكاية في حال من المدح مع الإشارة إلى ما يستطيبه الناس عادة من اللهو والجنس والهزؤ والإضحاك والإطراف. ويدخل في هذا الباب كتب الجدال والمنظارات والخصومات. ورسائل إخوان الصفا وجميع الكتب المؤلفة في فنون السلوك والعلم وفي علوم العربية من اللغة والنحو والنقد. [2]

وعليه فكل هذه المزايا الأسلوبية والموضوعية كانت لها اليد الطولى في العلو بكعب هذا الفن الذي أسهم في حفظ اللغة العربية في زمن كثر فيه اللحن، فضلا عن كونها تسلط الضوء على عيوب المجتمع وبالتالي دعوتها الضمنية إلى الإصلاح والتعليم وهي غايتها الفضلى.

05- مميزات المقامة الهمذانية:

موضوع المقامة عند بديع الزمان ليس واحدا، حقا أكثر المقامات موضوعها الكدية والاستجداء، إذ يظهر أبو الفتح الاسكندري في شكل أديب شحاذ يخلب الجماهير ببيانه العذب، ويحتال بهذا البيان على استخراج الدراهم من جيوبهم. وهو يتراءى بهذه الصورة في بلدان مختلفة، ولعل هذا ما دفع بديع الزمان إلى أن يسمي المقامات بأسماء البلدان، ومعظمها بلدان فارسية. وقد يسميها بأسماء الحيوان الذي يصفه كالأسدية، أو باسم الأكلة التي يلمّ بها أبو الفتح كالمضيرية نسبة إلى أكلة المضيرة. وأحيانا باسم الموضوع الذي يعرض له كالوعظية، لأنها تدور حول وعظ، والقريضية لأنها تدور حول القريض والشعر، والإبليسية لأنها تتصل بإبليس، والملوكية لأنها تتصل بملك هو أحمد بن خلف ومعنى هذا أن بديع الزمان لم يصطلح في تسمية مقاماته على سنة واحدة، ولعل هذا يشير إلى أن موضوعاتها تختلف، فهي لا تجري كلها في الكدية، بل تذهب مذاهب شتى، تتحد فيها الغاية، وهي رصف العبارات الأدبية المنمقة.

وكأن الشكل القصصي ليس هدفها، فهي إنَّما تتخذه خيطا ينسج حوله الحوشى من الأساليب المسجوعة، ومن هنا لم يعين البديع لنفسه خطة مرسومة، ومن ثمّ اختلفت موضوعاته.[3]

06- مميزات المقامة الحريرية:

1- ينظر: لجنة من أدباء الأقطار العربية: فنون الأدب العربي الفن القصصي، المقامة، ص10.

2- ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، ص416.

3- ينظر: لجنة من أدباء الأقطار العربية: فنون الأدب العربي الفن القصصي، المقامة، ص24، 25.

نجد في مقامات أبو محمد القاسم بن علي الحريري ذكاء ولسن وفصاحة فجذب إليه الأنظار، وقد خلّف بجانب مقاماته ديوانا من الشعر ومجموعة من الرسائل، كما خلّف كتبا في النحو واللغة، ومن أشهرها كتاب «درّة الغواص في أوهام الخواص»، ويختلف الرواة في المكان الذي ألّف فيه الحريري مقامته، فمن قائل إنه ألفها ببغداد، ومن قائل إنه ألفها بالبصرة. وتدور مقامة الحريري على الكدية والاستجداء، وهو من هذه الناحية أدق من بديع الزمان، فقد رأينا المقامة عنده إنما تدور على الكدية غالبا، وأنه أشرك معها موضوعات أخرى. أما الحريري فسلكها جميعا في قالب الشحاذة وعرض بطله (أبو زيد السروجي) دائما أديبا شحاذا.

وضع الحريري مقامته على أسلوب البديع في مقامته من حيث الحوار المحدود بين الراوي والبطل، ومن حيث هذه الصيغة الثابتة في أول المقامة «حدثنا» فمقامته تأخذ أسلوب القصة، وهي أكثر حبكة من مقامة البديع، ولكن لا تزال الغاية القصصية بعيدة عن الحريري، فالأسلوب هو غاية الحريري من مقامته، فهو فكّر في أن يروّع معاصريه بما يعرضه من الشكل الخارجي لمقامته، إذ يعمد إلى منحرفات أدبية يسوق فيها بعض مقاماته، إذ يعرض بعض الألعاب البلاغية مثل خطبة عاطلة من النقط، أو قطعة شعرية خالية به، أو رسالة تقرأ من آخرها إلى أولها أو أبيات من الشعر تجري على نفس المنوال. ويلحظ أن الحريري لم يقصد بفكاهته إلى شيء من تقويم النفس وتربيتها.

07- منامات الوهراني:

لقد اِطرد الإبداع في هذا النوع الأدبي مشرقا ومغربا وأحسن من تبوّأ مكانة فيه بعد الحريري هو الكاتب الجزائري (ابن محرز الوهراني) في القرن الخامس الهجري / الثاني عشر الميلادي) الذي اِستطاع أن يعالج جوانب مختلفة على أيامه: سياسية ودينية وثقافية واجتماعية واقتصادية بلغة رفيعة جدا وبأسلوب حافل بالسخرية، وروح الكدية التي تجاوزت مقاماته، إلى رسائله ومناماته في عمله الأدبي «منامات الوهراني ومقاماته ورسائله» قال عنها الدكتور عبد العزيز الأهواني «إنها تمتاز في تاريخ النثر الفني في الأدب العربي بميزات ترفعها إلى مقال عال، ولا نكاد نجد في النثر العربي القديم فيها ما في كتابات الوهراني من حيوية وذكاء، ولمحات تعبر عن شخصية الكاتب وتصور في دقة وبلاغة بعض جوانب الحياة الفكرية والاجتماعية في عصر من عصور التحول، في المجتمع العربي».[1]

وعليه فهي تجربة أصيلة في معناها ومبناها وصلت إلى مستوى التجارب المشرقية، لكنها أخذت طابعها الخاص من بيئتها الفكرية والسياسية والفنية متجاوزة قماط النمطية والمألوف للفن المقامي الذي أسس أركانه الهمذاني.

1- ينظر: عمر بن قنية: المقامة في الأدب العربي الجزائري، من القرن الثاني عشر حتى القرن الثامن عشر، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، العدد الثاني عشر، 2000، ص242.

«كما اشتمل ضرب من رسائله الاخوانية السياسية والأدبية على ملمح شتى وطرائف مختلفة، ومنامات جاءت في السياق من دون أن تبدو نابية، كحال (المنام الكبير) الذي استغرق نحو أربعين صفحة انطلاقا من مخاطبة صاحبه التي افتتحها بالشعر. مرحبا بالرسالة الوافدة عليه، ليتمطى ذلك على امتداد أربع وعشرين صفحة».[1]

إن هذا المنام للكاتب زاخر جدا بالقضايا الفكرية والتاريخية والدينية مما يخرج عن نطاق الحديث عنه، لكن يدخل فيه :أن الكاتب اِستمد إطار (المقامة) فإن نقل ميدانها من عالم الواقع الدنيوي، إلى عالم الغيب في (الآخرة) فقد وظف شكل المقامة. [2]

وهذا ما يؤكد امتداد المنامة الوهرانية في بنية المقامة، واتخاذهما الصنعة اللفظية وسيلة فنية تحقق لهما الاستحسان والانتشار، فهما على هذا النحو مثال حيّ عن الحياة الاجتماعية والفكرية لذلك العصر وأحوال زمانه وأخلاق رجاله.

1- ينظر: المرجع نفسه ، ص246، 247.

2- ينظر: المرجع نفسه، ص248.